عمار بلخوجة والحفاظ على الذاكرة الوطنية

"قراءة في مؤلف الأمير عبد القادر لا سُلطان ولا إمَام"

الدكتور لكحل فيصل، جامعة تيارت الأستاذ قفاف البشير، جامعة تيارت

"كان للأمير عبد القادر الإيمان والعلم الضروريين ليعلن نفسه إماما ولم يفعل.
وكان لديه القوة والقدرة والنفوذ ليعلن نفسه سلطانا، ولم يفعل"، ص136.

مقدمة

يعتبر عمار بلخوجة من بين أشهر الكتاب والصحفيين في مجال الكتابة التاريخية، فهو منذ اشتغاله ككاتب صحفي باللغة الفرنسية في جريدة "المجاهد"، تكونت لديه خبرة علمية ومعرفية بالتاريخ الثوري وبالشخصيات الأساسية التي كان لها دور فاعل في الثورة التحريرية وفي التاريخ الوطني، وقد ألف الكثير من المؤلفات في هذا المجال كلها باللغة الفرنسية أهمها" : علي معاشي النشيد المغتال"، "قضية حمداني عدة"، "علي الحمامي والحركة الوطنية الجزائرية"، "صفحات نوفمبر"، "الإستعمار جرائم دون عقاب"، "مومو الشاعر المبارك"، "صفحات من ذاكرة التاريخ" "الحركة الوطنية الجزائرية أبطال ومعالم"، "علي الحمامي والحركة الوطنية الجزائرية"، "الأمير عبد القادر، لا سلطان ولا إمام[1]"، ويبدو أن النسق الذي يوحد مؤلفات عمار بلخوجة على تعددها هو محاولة تفعيل الذاكرة الوطنية والتأريخ لها في سبيل الكشف عن حقائق التاريخ الجزائري وتاريخ الثورة خاصة، لأن هناك –في نظره– الكثير من الحقائق المنسية التي يجب إعادة استذكارها من خلال كتابة سيرة الشخصيات التاريخية، ومن بينها شخصية الأمير عبد القادر التي أفرد لها مؤلفا خاص سماه "الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام"، والذي هو محور اهتمامنا وتحليلنا في هذا الصدد، والسؤال المطروح: ما هو سر عنوان المؤلف: الأمير عبد القادر (لا سلطان؟) (ولا إمام)؟ وما هو الجديد الذي أراد عمار بلخوجة بيانه في هذا المؤلف مقارنة بالمؤلفات الأخرى التي كتبت عن الأمير عبد القادر؟

إن هناك الكثير من الكتابات التاريخية التي كتبت في تاريخ الجزائر وفي تاريخ شخصيات المقاومة والثورية ولكن فيما يخص شخصية الأمير عبد القادر قلما وجد مؤلف يحاكي الجوانب الشخصية في حياة الأمير بشيء من التخصيص، يقول واسيني الأعرج في تقدميه للكتاب "بمجرد انغماسي في عمق هذا الكتاب اتضح لي بسرعة أن الكتاب لم يكن كبقية الكتب الأخرى فهو يختلف عنها جذريا، إذ يقترح علينا مقاربة أخرى تضع الأمير في ادعاءات فجة يدعونا عمار بلخوجة الى قراءة واقعنا ونقائصنا ومواجهة سلبياتنا وكل ما تناسته الذاكرة[2]. إن المؤلف لا يتجه إلى الماضي التاريخي في سرد الأحداث والوقائع وإنما هو يحاول التنقيب في التراث المادي واللاّمادي في شخصية الأمير وفي زمانه الذي عاشه. وهو لا يكتفي بالوقوف عندها وفقط، وإنما يحاول ربطها بالواقع التاريخي الذي نعيشه من خلال إسقاطات تاريخية تبين المزالق والنقائص التي آل إليها واقعنا من خلال عودته إلى الماضي التاريخي وإستعادة الذاكرة المنسية من تاريخنا. يقول واسيني الأعرج "إن كتاب عمار بلخوجة عن الأمير لا يخيب قراءه مطلقا، ببساطته التعليمية وبعمقه أيضا. فقد اختار الكاتب مسلكا تحليليا ارتبط بتحولات الحاضر أكثر من أي شيء آخر. دافعه الأساسي في ذلك هو اعطاء صورة مستحقة للأمير[3]، ولعل الإضافة التي يمكن أن نلمسها في مؤلف عمار بلخوجة هو أن دفاعه عن شخصية الأمير لا ينطلق من دوافع ذاتية، وإنما نجده دائما يسعى إلى مراعاة الحقائق الموضوعية وهو إذ يسعى إلى تقديم شخصية الأمير في صورته التاريخية اللائقة به فإنه يربط هذا التاريخ بالواقع الحاضر مقتنعا بأن المؤرخ لابد أن يتجاوز حدود الماضي من خلال انفتاحه على الواقع الذي يعيشه.

إن الأمير عبد القادر شخصية تاريخية استثنائية في تاريخ الجزائر قلما تكررت في بالشكل نفسه الذي كانته شخصية الأمير آنذاك[4]، والشاهد أن الأمير منذ مبايعته في شبابه كان يملك صفات الشخصية الوطنية التي قلما كان يتميز بها أبناء جيله، "كان في يوم 27 نوفمبر 1832 وتحت شجرة الدردارة وهي شجرة عريقة في سهل غريس، أن بويع الفتى عبد القادر رئاسة المقاومة ضد الدخول الفرنسي، والذي سبق له أن حاربها مع والده محي الدين، غداة احتلال وهران. فمنذ ذلك التاريخ والقائد الشاب، الذي لم يتجاوز سنه 24 سنة، وهو يقود حربا في جبهات متعددة وبفضل شجاعته وذكائه، حارب مدة 15 سنة جيشا أقوى عشر مرات من حيث العدد وخاصة من حيث

العتاد العسكري"[5]، وكانت سياسته تعتمد على قيم الإرادة والتضحية والمقاومة، وهذا ما أهله لأن يكون قائدا عسكريا وسياسيا محنكا كان له الأثر في بناء وقيادة نظام الدولة الجزائرية الحديثة .

إن شخصية الأمير العلمية أهم وأغني بكثير حسب ما يري بلخوجة من شخصيته العسكرية والسياسية فقد ظل حتى آخر حياته يقرأ ويكتب شغوفا بالعلم والمعرفة مدافعا عن حق التربية والتعليم للجميع، "كان الأمير عبد القادر – وهو الراعي الكبير للكتب وللمخطوطات-أنهى حياته في التأمل والتفكير والتدريس والكتابة. وقد أثرى وهو المريد المتحمس لسيدي عبد القادر الجيلالي ولابن العربي الفكر العالمي والإسلامي بمؤلفات عديدة، ينبغي علينا اكتشافها من جديد وباستمرار[6]، وقد ساهم الأمير بنفسه في إثراء العلم والمعرفة من خلال حرصه على جمع الكتب والمخطوطات في شتى العلوم والمعارف ومن خلال ما كتبه من مخطوطات ومؤلفات.

أما عن الجوانب العسكرية والسياسية فإن الأمير كان رجل حرب وسياسة، حيث بقي حرا طليقا أمام المستعمر الفرنسي الذي كان يطارده أين ما حل وارتحل، "الأمير عبد القادر وهو المجاهد الذي لا يعرف الكلل والملل، بقي حرا يتعذر إمساكه، رغم العدد الهائل من الطوابير العسكرية التي كانت تلاحقه وتتبع أثره ولغاية سنة 1846 ورغم العمليات المنظمة لتحطيم البلاد وتخريبها، لا يزال استسلام عبد القادر لم يكتسب[7]، وإن دهاءه وحكمته جعلت منه رجل علم وسياسة وحرب لم يعرف الاستسلام ولم يتنازل عن مبادئه وقيمه الأصيلة التي ظل يدعو إليها طوال حياته.

لقد وضع الأمير شروط ومعايير فعالة كان يستند عليها في إدارة شؤون دولته تستند على الحكمة والفطنة، حيث "كانت البنية الاجتماعية-السياسية للمجتمع الجزائري، في عهد الأمير عبد القادر تحتوي مكانزمات بسيطة وفعالة في نفس الوقت، حينما يقتضي الأمر اسناد وظائف سامية الى رجل. وتتلخص هذه الميكانزمات أو بالأحرى هذه المعايير في فكرة واحدة للأمير عبد القادر بنفسه حين يؤكد بقوة وحكمة: "لكي تعرفوا رجلا يجب ألا تبحثوا أبدا عن أصوله. بل ابحثوا في حياته وأفعاله وستعرفون من هو"[8]، إن اختيار الأمير لرجال الدولة لم يكن على الحسب والنسب والأصل فقط، وإنما على المعايير التي كان يراها في سلوكاتهم وأفعالهم من الاستقامة الأخلاقية والعدالة والصرامة. يدعونا بلخوجة إلى الاستفادة من مدرسة الأمير فيما يخص تسيير شؤون الدولة ورجالها لتفادي ما حصل سنة 1992 من أضرار جسيمة مست كل مؤسسات الدولة الجزائرية مدة

أكثر من 10 سنوات، "هذه المدرسة هي بطبيعة الحال، دولة الأمير عبد القادر، التي كان من الممكن أن نستمد منها الأفكار القوية فيما يخص انشاء المؤسسات، وفي اختيار الرجال المكلفين بتسيير شؤون الدولة وفي التطبيق الصارم للشرعية.كان لنا في مجال الفضائل الأخلاقية في الأمير عبد القادر أنموذجا لا يضاهى أبدا. فرفضنا أن نشابهه. أنظروا إذن حولكم الى الأضرار التي حدثت[9]، يدعونا عمار بلخوجة إلى الإقتداء بشخصية الأمير في تسيير شؤون الدولة والمؤسسات من خلال الالتزام بالقيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية التي كان يتمثلها في شخصه والتي كان يدعو لها من خلال سلوكاته وأفعاله.

يبدو أن عمار بلخوجة لا يكتفي بذكر المناقب التاريخية في شخصية الأمير من خلال سرد الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما هو يتبع منهجا تحليليا نقديا لا يخلو من المقارنة والحوار والإقناع وبالتالي "فالمقصد النهائي من ردود عمار بلخوجة هو المحاورة بالأفكار وسبل الإقناع المختلفة من أجل استعادة الصورة النيرة للأمير بالمعنى الرمزي وحتى بالمعنى المادي، إذ يعود الكاتب في نقاشاته الى الوضعية المؤلمة لسنوات التسعين التي شهدت سلسلة اعتداءات متتالية ضد رموز التاريخ الوطني في البلاد منها الاعتداء مثلا على مجسم الأمير في الحراش[10]، إن التنكيل بالرموز الوطنية من خلال تشويه الشخصيات الوطنية والتجريح في أعمالهم وأفعالهم وتأويل مواقفهم وآرائهم بدون وجه حجة أو دليل أستدعى من عمار بلخوجة الكشف عن الحقيقة التاريخية من خلال دعوته إلى الحفاظ على رموز التاريخ الوطني التي طالها التخريب والإعتداء جراء عدم الإحساس بالمسؤولية التاريخية اتجاهها.

يبين عمار بلخوجة في مؤلفاته الدوافع التي دفعته إلى الكتابة في التاريخ الوطني، وهو شعوره بالمسؤولية الملقاة على عاتقه كصحفي وباحث اتجاه وطنه، ولعل هذا الإحساس راوده من خلال ما لاحظه من أحداث ووقائع خطيرة مست الجزائر ابتداء من التسعينيات، حيث يقول "يوجد لدي كالإحساس بأن بلادنا مستهدفة بأخطر المؤامرات، وحين أقول أخطر، فإني في الواقع لا أقع في غيابات المبالغة. فحينما يطعن في ثقافة شعب وفي تاريخه، فهذا لا يبقينا في حيز اللامبالاة، بل بالعكس يرفع من قلقنا الى أعلى درجة، لأن أولئك الذين يجازفون بإيكال أحقر الضربات وأكثرها مذمة للتراث الثقافي والتاريخي، إنما يحاولون — في حقيقة الأمر–إزالة ذاتية المجتمع[11]، إن الإنسلاخ

عن التاريخ وتهميش دور الماضي أمر خطير يفقد المجتمع هويته الثقافية والتاريخية، بل أن المجتمع يحتاج بإستمرار إلى تفعيل ماضيه التاريخي الذي يحفظ له وجوده وإستمراره الثقافي والحضاري.

يتعجب عمار بلخوجة من النسيان الذي يخيم على الذاكرة الوطنية التي نسيت وتناست شخصية مثل الأمير عبد القادر، يظهر هذا النسيان في عدم وجود يوم وطني للإحتفاء بهذه الشخصية والتذكير بها والتعريف بها لأبناء الجيل الجديد، "يبقى الأمير عبد القادر —وهذا منتهى المفارقة- مجهولا لدى عدد كبير من مواطنيه لا تزال مدينة معسكر تواصل — منذ سنة 1983-في حالة تستر تقريبا- إحياء ذكرى وفاة الأمير عبد القادر- احتفالات جد متواضعة بالرغم من الحماس الذي يطبعه[12]، إن الإحتفال الذي تقيمه مدينة معسكر في الغرب الجزائري في بساطته وتواضعه ليس حدثا كافيا لإخراج الذاكرة الوطنية من النسيان الذي خيم عليها اتجاه تاريخ الأمير، بل يجب أن يكون الحدث وطنيا تنعكس مظاهره على المستوى الوطني، لأن إنقاذ الذاكرة الوطنية يتطلب بالمقابل وعيا وطنيا مماثلا، والإحتفاء بذكرى وفاة الأمير ليس حدث يرجى لذاته من أجل الإجتماع والاحتفال، وإنما يجب أن يكون له أهداف وغايات علمية سامية تهدف إلى التعريف بشخصية الأمير لأبناء الجيل الجديد وكذا إثراء البحث في شخصية الأمير السياسية والعلمية وإسقاطها على المستجدات التاريخية التي يفرزها التاريخ الوطني في الواقع التاريخي .

إن النسيان التاريخي ليس أمرا طبيعيا أو غريزيا في الإنسان، وإنما هو في أغلب الأحيان نتيجة سياسة معينة تسعى إلى تهميش الدور التاريخي للأمير من أجل تحقيق الأغراض والأهداف السياسية، سواء كانت هذه الأهداف السياسية إيجابية أو سلبية فإنه ليس من حقها أن تنظر إلى التاريخ بمنظور واحد متجاهلة في ذلك الكثير من الأحداث والوقائع والشخصيات التي غيرت مجرى التاريخ الجزائري تغييرا جذريا، مثل الأمير عبد القادر، يقول عمار بلخوجة "إنني أريد أن أتكلم عن هذا المجاهد الباسل عن هذا الشاب قائد الحرب ضد الاستعمار، بغية إنعاش ذاكرة كل الذين يميلون إلى الافتراء وكل الآخرين الذين يجعلون من الإنكار الثقافي طريقة مدهشة للبروز في الحقل السياسي. توجد آلآف الكتب عن حياة الأمير عبد القادر وفكره وليس لي أن أثبت شيئا أو أن أكشف عنه.حقا كل شيء قد قيل ولكن كل شيء معروف بشكل سيء[13]، يبين عمار بلخوجة الجوانب المجهولة في حياة الأمير والتي لم تذكرها الكثير من المؤلفات، مثل مواقفه وثقافته وسياسته. وأراء

أعدائه وخصومه فيه "كان للأمير عبد القادر وقع كبير، في نفوس المقربين منه وأعدائه، بلغ حد الأسطورة، بفضل شجاعته وشهامته. فمنذ المعركة الأولى عند أبواب مدينة وهران تحت قيادة والده محي الدين تصدى الفتى عبد القادر للمدافع الفرنسية[14]، إن شخصيته أثرت في الكثير سواء في أنصاره أو خصومه وما زاد في شهرته هو التزامه بقيمه ومبادئه طوال حياته.

إن اهتمام عمار بلخوجة بالأمير عبد القادر كان من منطلق الرد على اولئك الذين شوهوا صورة الأمير في المخيال الإجتماعي الجزائري، إذ يقول "أنا معجب بالأمير عبد القادر وعضو مؤسس في المؤسسة الخاصة بهذا الرجل الشهير، الذي أجاد استعمال السيف والقلم بصفة رائعة. ولهذا أشعر بأنني معني بأن أجيب رشيد بوجدرة الذي تجرأ في رد فعل موروث عن – لست أدري- أي كاتب استعماري فرنسي، على اتهام الأمير بالخيانة[15]، يرد بلخوجة على رشيد بوجدرة الذي اتهم الأمير بالخيانة والولاء إلى فرنسا بأن هذا موقف الفرنسيين الذين كتبوا تاريخا مضادا في تمجيد فرنسا الاستعمارية ودورها في بلدان العالم الثالث ولكن كان على شخصية علمية –في نظر بلخوجة- مثل شخصية رشيد بوجدرة أن يكون حذرا من الأحكام المسبقة والأفكار الإيديولوجية الغير مؤسسة التي تمس خاصة بالشخصيات الوطنية، يقول ايضا "أنا احترم السيد بوجدرة لإنتاجه الأدبي الغزير؛ ولكن خاب ظني جدا من كاتب مرشح لجائزة نوبل، تفاعل ضد الأمير عبد القادر مع تصورات موروثة عن الإستعمار الذيقاتل بضراوة عدوا عنيدا، والذي استعمل كل الوسائل ليقنع بأن الأمير عبد القادر "بعد أن استسلم صار الصديق الوفي لفرنسا"[16]، وحسب ما يرى بلخوجة كان يجدر على رشيد بوجدرة أن يتتبع الحقائق التاريخية وأن يبحث عنها من خلال تحري الموضوعية التاريخية وأن لا يقتنع بما يرد إليه من الكتاب والمؤرخين الفرنسيين من أراء ومواقف تحتاج إلى تحقيق وتبيين تاريخي.

يكتب بلخوجة قائلا "والسيد بوجدرة المثقف، يعلم أحسن مني، أنه لا يكفي تحرير القطار من الاستعمار- وهو عمل أنجز بفضل تضحيات بشرية كبيرة – ولكن يجب أيضا تحرير العقل وتطهير التاريخ من التزويرات وغيرها من الإفتراءات"[17]، إن الاستقلال من الاحتلال الفرنسي لا يكمن في الجانب الجغرافي ولا في الجانب السياسي وفقط، وإنما يحتاج بالقدر نفسه إلى استقلال في الفكر والثقافة والحرية السياسية والاقتصادية، وأهم من ذلك كله لا بد التخلص من الإيديولوجية الثقافية

الإستعمارية التي بقيت مندسة في الأوساط الثقافية تتحين الفرص كي تستيقظ من جديد وبأشكال أكثر خطر على مجتمعنا وعلى منظومتنا التربوية والتعليمية التي ينبغي أن نوصل إليها حقائق التاريخ دون تزوير أو تحريف للحقائق عن مسارها الصحيح.

إن كتابة التاريخ ليست مهمة سهلة يمكن أن يقوم بها أي كان من المثقفين، وإنما هي عملية صعبة تتطلب الكثير من الحرص والالتزام والمسؤولية والحياد والموضوعية، و"يجب الاعتراف بأن هذا العمل مضن قام به بعض المؤرخين الذين أذكر من بينهم، وببالغ السرور السادة المحترمين توفيق المدني، مبارك الميلي، مصطفى لشرف ومحمد شريف سحلي، وانصح بوجدرة أن يركز بجدية أكثر على مؤلفات هذا الكاتب الأخير وسيعلم بالتأكيد أن((تحرير التاريخ من رقبة الاستعمار)) هو عمل يجب أن يتعلق به مثقفونا، عوض أن يدلوا بالتصريحات مثل ما فعله هو ناشر الحيرة والبلبلة طاعنا في ذاكرة مقاومينا الأشاوس[18]، إن الواجب الوطني يقتضي الالتزام بالمسؤولية التاريخية الملاقاة على عاتق المؤرخين والباحثين في التاريخ الوطني الجزائري.

يرى بلخوجة أنه يجب على المثقفين والمهتمين بالتاريخ أن يتحققوا من الخبر التاريخي وأن يلتزموا الموضوعية قبل أن يقروا بأي أحكام مسبقة قد تعود عليهم بالنقد، وفي قضية اتهام الأمير بالخيانة من طرف بوجدرة وغيره يبين بلخوجة أن هذا الموقف لم يفهم الظروف التي كان يمر بها الأمير آنذاك في توقيفه للحرب مع فرنسا، وأن هذا الأمر لم يكن نتيجة استسلام أو خيانة، وإنما كان من أجل الحفاظ على حياة الشعب من القتل والإبادة الإستعمارية، يقول بلخوجة "سأذكر بأن الأمير عبد القادر لم يستسلم بالمعنى الذي نريد إعطاءه لهذه الكلمة ولكنه قرر توقيف الحرب، لأن شعبه كان معرضا للإبادة التي اقترفها ضده جنرالات دمويون سفاحون، وكما كان الشأن بالنسبة لكل القرارات المتخذة، كان يتشاور مع خلافائه الذين بقوا على قيد الحياة وفقهائه المشرعين، وكان قد تفاوض على إنهاء الحرب مع((لاموريسيير والدوق دومال.))وعوض أن يحترم الفرنسيون ما اتفقوا عليه مع الأمير، سجنوه وحاشيته مدة خمس سنوات، فعن أي خيانة تتحدث يا السيد بوجدرة؟" [19]إن تفاوض الأمير مع الإستعمار الفرنسي لم يكن أمر استسلام، أو تنازل عن حقوق الشعب الجزائري آنذاك[20]، وإنما كان سياسية وجيهة من طرف الأمير لربح الوقت ولإنقاذ شعبه من القتل والإبادة، كما أن الخيانة لم تكن من طرف الأمير لشعبه وإنما كانت خيانة الإستعمار لما اتفق عليه

مع الأمير، "لم يكتفي الفرنسيون بالتنكر للعهد الذي أعطوه للأمير عبد القادر الذي قاوم أعتى جيش في أوربا في ذلك الوقت، فسجنوه مدة خمس سنوات[21]، ولو أن الأمير خان شعبه لما سجنه الإستعمار ونكل به، يقول بلخوجة "أنصح السيد بوجدرة –هو الذي كان له الحظ أن تعلم عدة لغات – أن تقرأ كتاب ((تحفة الزائر))الذي ألفه محمد السعيد بن الأمير عبد القادر. هذا الكتاب باللغة العربية يحتوي على مجموعة كبيرة من المعلومات حول الحرب التي قادها الأمير عبد القادر ويصف للجاهل في أي ظروف عصيبة اضطر المقاوم أن يفاوض نهاية الحرب[22]، إن إصدار أحكام جاهزة ومطلقة في ما يخص التاريخ الوطني الجزائري أمر يحتاج إلى مراجعة وتدقيق معرفي وعلمي، بل أن كتابة التاريخ بشكل موضوعي تقتضي من الباحث التزام الحس النقدي السليم الذي يتحرى الموضوعية قبل أن يقدم أبسط يقين.

إن التهم الموجهة للأمير أبعد عن الخيانة التي وصفه بها بوجدرة، بل "راح المزورون يقذفون بدورهم الأمير عبد القادر بكل الإفتراءات وبكل الأكاذيب منها أنه: ((بعدما استسلم صار الصديق الوفي لفرنسا)) وأنه قد يكون انخرط في الماسونية"[23]، ولا شك أن هذه الاتهامات تحتاج إلى إثباتات تاريخية موضوعية وإلى حجج تكشف عنها، وإلا فإنها تهم باطلة، وما يؤكد بطلانها هو أنها تتنافى مع شخصية الأمير الإجتماعية والسياسية والعلمية، لأن نضال الأمير وكتاباته تتنافى مع هذه التهم جذريا، إذ كيف للأمير أن يخون مبادئه وقيمه وكيف له أن يعلن الوفاء للإستعمار وهو الذي ناضل وجاهد حتى آخر حياته بالسيف والقلم معا.

إن هدف الإستعمار الفرنسي لم يكن التحكم الجغرافي والسياسي في الجزائر وفقط، وإنما كان يهدف إلى محو الهوية الوطنية والتنكيل بمقومات الأمة والمجتمع، من خلال العمل على سلخ المجتمع عن تاريخه ودينه ووطنيته، "لقد واجهت الحركة الوطنية وحرب التحرير المسلحة عملا دنيئا، يرمي إلى تحطيم الشخصية الجزائرية ومحو تاريخها، لقدُ سرق تمثال نصفي للأمير عبد القادر من ساحة صغيرة بالحراش. ومنذ وقت جد قليل سرقت اللوحة التذكارية من نصب للأمير عبد القادر، أقيم بنهج العربي بن مهيدي بالجزائر العاصمة هذا شيء محزن. لقد حاول الاستعمار الفرنسي جهده ليبعدنا عن تاريخنا الوطني بالطعن في شخصية من شخصياتنا الأكثر شهامة ونبلاً. اليوم يتصرف البعض منا بنفس الطريقة هذه المواقف تعتبر – ببساطة– مضادة للأمة"[24]، إن آثار الإستعمار الثقافية

والسياسية تجلت أكثر بعد الإستقلال من خلال التشكيك في القيم الوطنية وبث الفتنة بين أبناء الوطن الواحد وما زاد في استفحال الأمر هو أن الكثير من أبناء الوطن والأمة ينتهجون الطريق نفسه الذي اتبعه الإستعمار وما ذكره بلخوجة من تنكيل وتحطيم للنصب التذكاري للأمير، ولرموز الثورة الوطنية دليل على أن الإستعمار الفرنسي لا زال يتحكم في وعينا الثقافي والإجتماعي من خلال ما زرعه من فتنة وتزوير.

ليس الهدف من الدعوة إلى كتابة تاريخ الجزائر توثيق المعلومات أو الإشادة بالثورة التحريرية وأبطالها فقط بل أن لها مهمة ووظيفة تربوية وعلمية تنعكس إيجابياتها على مجتمعنا الجزائري المعاصر وعلى فئة الشباب خاصة الذين عليهم أن يتعرفوا على تاريخ أجدادهم لكي لا ينسلخوا عنه، ولكي لا يفقدوا هويتهم التاريخية وبالتالي يصبحو عرضة للزيف والتحريف، بل وإلى الانسلاخ في هويات أخرى تضر بشخصيتهم وبمستقبلهم، "ينبغي الحفاظ مستقبلا على الذاكرة الجماعية، وسد كل الفجوات الخطيرة التي ملأتها من جهة أخرى أقبح الحماقات وأسوءها. إن الغباوة، والجهل، والظلامية، وفقدان الذاكرة السياسية ونكران الشخصية والماضي، واستيراد الألبسة والنظريات الأشد غرابة تشكل بالنسبة لشبابنا شوائب وتمزقا خطيرا[25]، ينبغي على المؤرخين والمثقفين أن يكونوا على وعي بالتداعيات السلبية الناتجة عن نسيان التاريخ وإهدار ذاكرة المجتمع وثقافته الأصيلة، لأن ما يحصل اليوم في المجتمع الجزائري من مشاكل وأزمات في المجتمع والثقافة والسياسية وغيرها نتيجة غير مباشرة لإهمال التاريخ ونسيانه وعدم تفعيل الذاكرة الوطنية.

إن المتأمل في أراء ومواقف بلخوجة الجريئة يجدها تتفاعل بحماس فائق مع التاريخ الثوري ومع الشخصيات الوطنية التي كان لها أثرها في الحركة الوطنية الثورية وما بعدها، إن الحس التاريخي كان يلهمه في التنقيب عن الحقائق التاريخية، حيث فاق الحس التاريخي عنده المقاربة العلمية الصارمة التي ينتهجها المؤرخون، "هل ينبغي أن نتخذ موقفا محايدا، باسم المقاربة العلمية التي يجب أن تطبق على التاريخ؟ بالتأكيد لا!....إن الباحث الجزائري يجب أن يوجه في عمله اهتمامه بالوصول الى الحقيقة التاريخية والتي يفترض أن تطهر من كل الأخطاء المرتكبة عن وعي أو غير وعي، ومن الأعمال المزورة ومن كل الافتراءات[26]، إن المؤرخ الجزائري الذي يكتب في تاريخ الجزائر لا يمكنه أن يتخلص من حماسه الوطني ومن بعده التراثي، لأن هذا الحماس هو الذي يلهمه في تحرى الحقائق

من داخل المجتمع والثقافة التي ينتسب إليها، ولا يمكن للمؤرخ أن يثق في ما يرد إليه من ثقافة التاريخ الاستعماري، كما لا يمكن أن تكون مصدرا له في الحكم على الأحداث والوقائع، بل يجب أن يكون الواقع هو مصدره والمواقف والأراء الموضوعية هي هدفه وغايته. إن مهمة المؤرخ والمثقف هي الدفاع عن حقائق تاريخه الوطني وليس التهجم على هذا التاريخ والافتراء على شخصياته، يقول بلخوجة "أما نحن فنرفض أن نتواطأ مع أولائك الذين يجازفون بالافتراء على الأمير عبد القادر. لقد تعافينا من كل العقد والحمد لله، وسنواصل دفاعنا عن ذاكرة رمز عظيم للوحدة الوطنية ولحب الوطن[27]، لأن مهمة كتابة التاريخ مسؤولية كبيرة تلقى على عاتق الجيل اللاحق الذي ينبغي عليه أن يتحرى الموضوعية وأن لا يقبل بالمواقف المزيفة التي تزور التاريخ وتطعن في شخصياته.

يبدو أن ما استثارة عمار بلخوجة في شخصية الأمير ليس هو الجوانب السياسية أو الدينية أو الوطنية وفقط، بل ما وجده في شخصيته من حب للعلم والمعرفة، "كان الأمير عبد القادر، في الوقت الذي كان يحارب المستعمر بقوة السلاح، يعمل بلا هوادة على ترقية المعرفة والعلوم والثقافة وللقيام بهذا العمل كان مؤلف كتاب "المواقف" ينشئ المدارس في المدن والقرى، ويستخدم في كل مكان معلمين كان يكن لهم الاحترام وتقديرا للعلم الذي كان يمتلكه كل واحد منهم في المادة التي كانت تخصه[28]، كان الأمير على وعي بما يمكن أن يقدمه العلم والمعرفة للمجتمع الجزائري آنذاك، فعمل بكل جهده على نشر العلم والمدارس والمعلمين ولم تلهه مهامه السياسية وحربه ضد الإستعمار عن هذه الغاية السامية، لأنه وجد في العلم والمعرفة طريقا نحو توعية وتحرير المجتمع الجزائري. بل أن "الأمير عبد القادر الذي كان يحدوه الاهتمام بترقية العلوم والثقافة–قام بإحصاء شامل ودقيق، وبالمحافظة المتيقظة على المخطوطات المودعة في مختلف زواياالبلاد، والتي تبحث خاصة في الطب والتاريخ وعلم الفلك والفقه.وكان البلد يحتوي على كثير من المؤلفات في العديد من المواد. هذه الفكرة الأساسية للتوثيق، حيث حث الأمير على القيام بوضع بطاقيات حقيقية للكتب والمخطوطات في الزوايا مثلما كان، من جهة، يكافئ كل جندي كان يأتيه بمخطوط ويعاقب كل شخص يقوم بإتلاف كتاب أو مخطوط[29]، فبالإضافة إلى حرصه على ترقية الإنسان والمجتمع من خلال الحفاظ على الموروث العلمي والعمل على توثيقه كانت شخصية الأمير موسوعية حيث أنه جمع ما وصل إليه من العلوم والمعارف في مكتبة خاصة كان يسعى إلى جمعها وترتيبها

وتوثيقها لكي تبقى موروث ثقافي للأجيال التي تأتي بعده من طلبة العلم والمعرفة في مختلف العلوم، "كان الأمير عبد القادر، أثناء تنقلاته العديدة عبر البلاد وفي الشرق الأوسط قبل دخول الفرنسيين جمع ألاف الكتب والمخطوطات. وأودع مكتبته العظيمة بمدينة تاقدمت "قرب تيارت" التي اختارها عاصمة، وحيث كان ينوي تأسيس جامعة، ولكن بكل أسف! بعد تدمير القاعدة المحصنة الرئيسية في شهر مايو 1841 أدمجت المكتبة الكبيرة في الزمالة العاصمة الجديدة المتنقلة للدولة الوطنية التي كانت في حرب ضد مستعمر عازم على تدمير كل شيء[30]، إن سعى الأمير إلى الحفاظ على الكتب والمؤلفات المخطوطة يمثل عملا حضاريا راقيا في ظل تلك الظروف التاريخية الصعبة التي كان يمر بها في حربه ضد المستعمر، ولكن نتيجة سيطرة المستعمر وتدميره وتخريبه لم تستقر مكتبة الأمير في مكان معين، بل أدمجت مع قافلته المتنقلة من مكان إلى آخر خوفا عليها من تدمير المستعمر، وبالفعل "في مايو 1843 أبيدت مكتبة الأمير عبد القادر النفيسة عن أخرها. وقع الجرم أثناء الهجوم المفاجئ على الزمالة في "تاغيت" جنوب قصر الشلالة. لقد تعاطى ضباط الجيش الفرنسي والجنود الى النهب والتدمير. وحينما وصل الأمير الى عين المكان، لم يبق شيئا من العاصمة المتنقلة الشهيرة التي تعذر الى غاية الآن الاستيلاء عليها[31]، لقد دمر المستعمر كل شيء ولم يحقق الأمير ما كان يطمح إليه من تحقيق جامعة للعلم والمعرفة، لأن التراث العلمي المخطوط والمكتوب الذي كان في مكتبة الأمير دمر عن آخره ولم يصلنا منه شيء واضح الأصل والانتساب.

يفهم هنا أن الإستعمار لم يعمل على تدمير وتشويه إرثنا الثقافي والحضاري فحسب، بل عمل بكل وسعه على تجهيل المجتمع وتكريس ثقافة النسيان اتجاه الشخصيات الوطنية، بل أن تاريخ الأمير عبد القادر طاله هذا النسيان ذاته، إن الإستعمار مارس سياسية التجهيل وحاول محو الذاكرة الوطنية من روحها الوطنية وجعلها عرضة للتلف "واليوم، نحن لا نعرف كمجتمع يعيش في سنة 1993 بعد أن بتر من ماض مجيد إلا بعض العموميات المبهمة عن رجل مشهور، لقد قال ذات يوم محمد حربي وهو مؤرخ جزائري، أن التاريخ صار خادما للسلطة. ولأن ذاكرتنا لم تسجل إلا بعض الذكريات المبهمة عن ملحمة الأمير عبد القادر، فهناك ما يدعو الى التأكيد على أن التاريخ لم يفدنا بما فيه الكفاية، أو فادنا بصفة سيئة حسب ما اقتضته ارادة السلطات[32]، لا يمكن للسلطة البحث في التاريخ والمحافظة عليه كما لا يمكن أن يكتب تاريخنا غيرنا من المؤرخين

الأجانب الذين لا يملكون الروح الوطنية نفسها التي تجعلهم يبحثون عن الحقائق دون تزوير أو تلبيس، إن المؤرخ والمثقف الحر والمسئول هو الذي ينبغى عليه أن يبحث عن الحقيقة التاريخية دون أن يتأثر أو يبالي بما يقوله عليه غيره، لأن البحث في التاريخ يتطلب إلى جانب الموضوعية التحري بالقيم الأخلاقية السامية التي تجعله يقول الحقيقة في سبيل تحرير التاريخ من الافتراء والتزوير. خارج كل غطاء أو وصاية.

نجد عمار بلخوجة كثيرا ما يتأسف عن مجتمعنا وثقافتنا التي تجاهلت رموزها الوطنية ونكلت بمظاهر تاريخها الحضاري من خلال السعي إلى تحطيم وتدمير الموروث الثقافي والحضاري الذي وصل إلينا، من ذلك أن الخلافات والأطماع السياسية جعلت أمر التاريخ الوطني نسيا منسيا "مقاصد سياسية دنيئة وحقيرة انتشرت وترسخت في عقول جاهلة، اننا نشاهد إذن وبكل أسف مختلف السلوكات التي عوض أن تقدم خدمة للأمة ولوطنها، توجه اليها طعنات من الخلف، هذا يرجعنا الى تقنع الاستعمار وحيله ومكره الذي كان ذمة الأمير عبد القادر تلاحق صانعيه،كما كان "قبيل" يفر من جريمته ووخز الضمير يلاحقه الى الأبد، لأن الاستعمار الفرنسي ارتكب في حق الأمير عبد القادر ابشع الخيانات وأنكر الاكاذيب وأرذل المؤامرات. بالفعل، بعد شهر ديسمبر 1847 أصر السياسيون ومؤرخو الاستعمار على استدامة كل تزوير وغش، للانقاص من شخصية الأمير عبد القادر وإبعاده عن شعبه[33]، ولكن شخصية الأمير لم تكن في مستوى خيانتهم وقدرتهم على الغش والتزوير، لأنها شخصية أخذت سبل العلم والمعرفة طريقا إلى الإصلاح والخلاص الإجتماعي والسياسي من مكائد الإستعمار وما فعله المؤرخون والساسة الفرنسيين في حق شخصية الأمير يدفع الباحث إلى محاولة تحرى الحقائق وتفنيد أحكامهم وأرائهم المزورة التي توافق هواهم ومعتقداتهم، و"ما كان لمزوري التاريخ أن يقبلوا بوجود رجل في هذا القرن 19، من طينة الأمير عبد القادر رجل نادر رجل كامل، رجل تبين أنه رائد النهضة الإسلامية في اطار التقدم والحداثة رجل ستكون استراتيجيته العسكرية مدرسة لحركة التحرير الكبيرة من الاستعمار في بداية قرننا، رجل ذو فضائل روحية عالية كان هو نفسه مريدا لصوفي عظيم هو ابن العربي[34]، حيث اجتمعت في شخصية الأمير الخصال السامية من العلم والمعرفة والأخلاق والدين والسياسة وغيرها. وهذا بشهادة العدو قبل الصديق، وما ساعد في بلورة شخصيته هو ما تلقاه من علوم ومعارف كونت في ذاته

الحكمة العلمية والعملية، "ومن الطبيعي أن ينتزع عبد القادر بن محي الدين، بفضل خصاله الأدبية والثقافية الفذة، إعجاب اعداءه أنفسهم ليس فقط خلال المعركة الطويلة التي خاضها بل أكثر أيضا اثناء اعتقاله في فرنسا. قد اكتشف زائروه، الذين كانوا من طبقة اجتماعية وثقافية عالية رجلا مهذبا مثقفا، ظريف مع النساء، متواضعا، فاضلا، قليل النزوع الى الكراهية والانتقام"[35]

يدعونا عمار بلخوجة إلى عدم الثقة في كل ما يكتب حول شخصية الأمير، بل يجب تحري الدقة والالتزام بالموضوعية، وعدم تصديق كل ما ينقل إلينا، لأن هناك الكثير من الأحكام المسبقة والجاهزة التي يسعى البعض من خلالها إلى تشويه شخصية الأمير في أذهاننا دون وجه حق "وسنبقى. دوما لم نوفيه قدره، كل قدره... اللهم إلا إذا قررنا ذات يوم تطهير عقولنا من أحكام مسبقة وارتكاسات بثها فينا كتاب خبثاء لكي ندفن بأيدينا تاريخنا الوطني وفي نفس الوقت شخصا يتمتع بشهرة واسعة تجاوزت أهميته الى أقطار أخرى. وكان لابد من تأسيس مؤسسة تهتم بالتعريف بحياة الأمير عبد القادر وأعماله فأنشئت سنة 1991 مؤسسة الأمير عبد القادر التي عقدت العزم على محاربة الصمت الذي ضرب حول رجل ترك أثرا بالغا في القرن الذي عاش فيه"[36]، ويرجع الفضل لعمار بلخوجة ومن ساانده في فكرة إنشاء هذه المؤسسة، لأنها أول خطوة تسعى إلى الحفاظ على تراث وتاريخ الأمير منذ الاستقلال من خلال الأهداف والغايات التي سطرتها.

وعلى حسب ما يبين بلخوجة الغاية والهدف من تأسيس مؤسسة الأمير عبد القادر، و"من ضمن هذه الأهداف تمسك المؤسسة بالعمل على التعريف بحياة الأمير عبد القادر وعمله والإبداع الفني والإنتاج العلمي. وفي هذا السياق قررت المؤسسة مؤخرا اعطاء خمس منح دراسية وإنشاء جائزة لأحسن بحث، ويبقى من أهدافها الأخرى تأسيس قسم وثائقي خاص بأعمال الأمير عبد القادر وإصدار مجلة دورية ونشر أعمال الأمير الأدبية والعلمية، وجمع أو جرد المخطوطات والأرشيف الخاصة والوطنية والدولية. ويتطلب مثل هذا البرنامج وسائل مهمة وإرادة من طرف هيئات الدولة الرسمية التي يرجع اليها التكفل بتراث ذي طابع وطني[37]، إن كل الأعمال والجهود التي سعى نحو تحقيقها أعضاء مؤسسة الأمير عبد القادر خطوة إيجابية وغاية علمية وإنسانية سامية في سبيل توثيق تاريخنا الوطني والثوري والتشجيع على الاهتمام بالشخصيات الوطنية الثورية، غير أن هذه المساعي خطوة أولى تحتاج إلى الدعم والمساندة الرسمية من الدولة كما تحتاج إلى التكفل بها من طرف

المؤرخين والمثقفين من أبناء الجيل الجديد، من أجل تحقيق أهداف المؤسسة والحفاظ على إستمراراها التاريخي. يقول بلخوجة "في الوقت الراهن يبذل أعضاء المؤسسة الجهد حسب استطاعتهم للدفاع على سلامة الذاكرة وشخصية الأمير عبد القادر من التزوير والقذف والتدنيس والاستغلال.كما أن المؤسسة لا تفتأ تقترح ترسيم يوم 27 نوفمبر كيوم للمقاومة الشعبية، يحتفل به مثلما يحتفل بالأعياد الأخرى، وهذا كان أمنية المغفور له الأستاذ أمحمد فرحات الرئيس المؤسس لمؤسسة الأمير عبد القادر[38] لكن الاحتفاء بيوم وطني للأمير عبد القادر ليس كاف من أجل إعطاء شخصية الأمير حقها التاريخي الذي يستحق، وإنما يجب تمثل مبادئ وقيم الأمير والتأسيس لها في فكرنا وإيصالها بأمانة لأبناء الجيل اللاحق من الفكر.

لكن "هل حقيقة استرشدنا بعمق الأمير عبد القادر، فيما يخص إحياء الدولة الوطنية؟ بالتأكيد لا. إن بقاء النظم ونشوة السلطة "الحكم" حلا محل بناء دولة قوية لا تزول بزوال الرجال، بل كان يجب أن لا تزول بزوال أطماعهم[39]، إن الهدف من قيام الدولة الوطنية ليس هو الحفاظ على الحكم أو السلطة في يد أشخاص بعينهم، وإنما هو الحفاظ على نظام الدولة واستمراره بما يخدم الصالح العام للأفراد والمجتمع، إن طغيان المصالح السياسية الضيقة على الصالح العام للدولة تكون نتيجته عدم استقرار النظام وفقدان الدولة لاستقرارها واستمرارها. "كنا قد أدرنا ظهرنا لتعاليم الأمير عبد القادر فصرنا ضحايا غرورنا، بل ضحايا جهلنا واقترفنا اثما بجهلنا للتاريخ[40]، لأن عدم استقرار واستمرار نظام الدولة الوطنية بالشكل السياسي السليم كان نتيجة تغييب الذاكرة التاريخية وتزييف وتزوير حقائق ووقائع التاريخ.

إن تشويه وتزييف التاريخ لم يقتصر على محو الذاكرة الوطنية، وإنما تعدى إلى تزييف صورة الشخصيات الثورية بصور أخرى غير حقيقية مثلما حصل مع صورة الأمير عبد القادر التي تم استبدالها بصورة أخرى لخائن متعاون مع المستعمر فرنسي اسمه "فرحات بن عامر" كما يبين ذلك مصطفى الأشرف في مؤلفه "أسماء وأماكن، ذاكرة الجزائر المنسية"، يقول بلخوجة عن ما قراءة في هذا المؤلف "وبعد قراءة الكتاب المفيد، تعهدنا الاتصال بالأستاذ مصطفى لشرف للمزيد من المعلومات عن الأماكن التي علقت فيها بالضبط هذه الصور المزيفة (...) لقد كان جد حزين بإعلامنا أن هذه الصور الشهيرة ليست مجرد ثمرة الخيال. ولكنه أكد لنا أن المخزي هو أن الصور

تمثل خائنا، خصما عنيدا للأمير عبد القادر، وهو عون حقير للجيش الاستعماري اسمه فرحات بن عامر. هو هذا الذي بذل قصارى جهده ليقف على أثار زمالة الأمير عبد القادر التي لم يتوصل الجيش الفرنسي الى العثور عليها، وبلغ عنها أسياده في شهر ماي 1843. فبناء على المعلومة التي بلغها الخائن فوجئت الزمالة وأبيدت، يوم 19 مايو 1843، في غياب قائد المقاومة المجيد الحاج عبد القادر بن محي الدين، وفي عام 2000 ها هي صورة خائن تزين المقرات الرسمية للجزائر السيدة، انها علامة الزمن الرديئة [41]، وفق ما يؤكد بلخوجة ومصطفى الأشرف أن ترويج الصورة المزيفة للأمير عبد القادر في المؤسسات الرسمية أمر ناتج عن غياب الرقابة والمسؤولية التاريخية، إن استذكار المؤسسات الرسمية للدولة تاريخ الأمير عبد القادر هو في حقيقته نسيان له في صورة خائن كان حليفا للمستعمر الفرنسي هو فرحات بن عامر، لأن الغرض من تزييف صورة الأمير هو تغيير التاريخ الوطني الرسمي واستبداله بتاريخ مزيف.

يكشف التاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر عن الجرائم التي ارتكبها بغير وجه حق وبدون مسؤولية أخلاقية وإنسانية، و"سيأتي يوم يتحتم فيه على أوروبا أن توافق على مراجعة كتابة التاريخ الاستعماري وقراءته، سوف لا يكونون "جنود فرنسا الأمجاد"، ولكن هذا التاريخ هو تاريخ قذر-هو مكتظ بمجرمي الحرب منذ بيجو ومنتانياك الى بيجار وماسو مرورا بقائدهم "ديغول" الذي أمر بتقتيل 45000 جزائري يوم 8 ماي 1945[42]، ليس كل ما يصل إلينا من التاريخ صحيح، لأن الكثير من الوثائق والسندات والمخطوطات الثورية لازالت في الأرشيف الفرنسي ولم تسلم إلى غاية الآن. كما أن أوروبا المستعمرة زورت وحرفت التاريخ الرسمي لتتستر عن جرائمها أمام الرأي العالمي.

إنه لأمر خطير أن يتداعى الكثير من المثقفين إلى الإستهزاء بتاريخ الثورة وتقزيم الجهود الثورية التي بذلت في سبيل تحرير وإستقلال الجزائر، "البعض منا بما فيه المثقفون، ضحايا عقولهم الضيقة اكتسبوا عادة مستهجنة تتمثل في تقليص ما هو كبير وإنكار ماضي الجزائر المجيد والأخطر أيضا اظهار احتقار ولامبالاة برجال الوطن المشاهير عندئذ لماذا نتساءل كثيرا عما يصيبنا اليوم" [43] إن نسيان الذاكرة الوطنية ليس أمرا طبيعيا وإنما هو نتيجة الأفكار والأراء الهدامة التي تسعى إلى محو ذاكرة المجتمع وإفراغها من مضمونها التاريخي .

إن التعريف بالأمير عبد القادر بالنسبة للجيل الجديد من الشباب يقتضي عدم الإكتفاء بما يكتب حوله أو بما نسمعه في المحاضرات، لأن هذا الأمر وإن كان مهما إلا أنه لا يُعرف بالأمير عبد القادر على نطاق واسع يصل إلى غالبية المجتمع، وما يقترحه بلخوجة هو إخراج فيلم حول الأمير عبد القادر من خلال قوله "أتوجه بصفة خاصة الى السينما الوطنية لأعرب عن قلقي أمام مؤامرة السكوت المفروض على مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة أعني به الأمير عبد القادر بن محي الدين مخاطرة بالتكرار، أقول أنه يجب الاعتراف بأن الكتاب ليس في متناول الجميع. فهو يبقى وقفا على المثقفين مثل ما هو، من جهة أخرى، كتاب التاريخ خاصية للباحثيين وأقلية يدفعها الاهتمام بمعرفة الماضي ورجاله، وخاصة الهروب من الأفكار المسبقة التي تروجها ثقافة الكلمة وتسميم العقول "نظرية "قالوا"، "قالوا لي" "قلنا" "قالوا" المشؤومة"[44]، إن توثيق التاريخ أمر مهم وهو لا يقتصر فقط على المؤرخين والمثقفين، بل يحتاج إلى تظافر جهود متعددة وإخراج فيلم حول شخصية الأمير يعد سيرا في اتجاه الحفاظ على الذاكرة الوطنية من النسيان، نظرا للأثر الذي يمكن أن يتركه في أذهان شبابنا في علاقتهم بتاريخهم وتراثهم الحضاري."لقد عرض الفرنسيون على الشاشة ألف مرة ومرة "الملحمة الامبريالية" الخاصة بنابيلون بونابرت. وشرف المصريون ذاكرة صلاح الدين الأيوبي بانجاز سينماتوغرافي رائع. نفس الشيء قام به الليبيون الذين كرسوا انجازا فخما للمعركة البطولية ولتضحية المقاوم العظيم عمر المختار[45]، وانطلاقا من هذا وجب على المسؤولين في بلادنا أن يسعوا في إخراج فيلم سينمائي حول شخصية الأمير عبد القادر حتى تعم الفائدة التاريخية للجميع وحتى تصل شخصيته وحياته ونضاله إلى أغلب فئات المجتمع، "وبما أن الشغل الشاغل هو التأثير في أكبر عدد من شبابنا، يجب إذن التفكير في ايجاد وسائل أخرى للتعميم، والسينما مؤهل تماما لسد فراغ مرعب. ويبدو أن مشروع فيلم الذي اقترحه ابن عمر بختي نفسه لانجازه لم ينجح. الحديث عنه يجري منذ عشر سنوات ولكن –يا إلهي أين يكمن –إذن– العائق؟ أهو مادي أم سياسي؟[46]

يدعو بلخوجة إلى ضرورة الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقنا اتجاه تاريخ ظل منسي من شخصية الأمير عبد القادر، وإنتاج فيلم سينمائي من شأنه أن يساهم في التعريف بالأمير على نطاق واسع، ولا يقتصر أمر تغييب الشخصيات الثورية والوطنية على الأمير وفقط، بل "ليس الأمير

عبد القادر وحده الذي دفع ضريبة الصمت. مؤامرة الصمت مست صراحة كل الماضي الذي كان تحت الهيمنة الفرنسية. لم ينجز أبدا فيلم طويل ولا فيلم وثائقي عن لالة فاطمة نسومر، ولا عن الزعاطشة ولا عن بني شقران ولا عن ناصر بن شهرة، ولا عن الشيخ الحداد، ولا عن الأمير خالد ولا عن الحركة الوطنية الجزائرية، ولا عن جرائم الاستعمار التي تحاول الامبراطوريات التي تحمل نفس الاسم أن تمحوها هي الأخرى لمنع الأجيال القادمة من أن تثور بضميرها ضد ماض مخجل[47]، إن تاريخ الثورة يكاد يكون مغيبا ومنسيا في السينما الجزائرية. التي ينبغي عليها أن تفعل هذا الجانب المنسي من تاريخنا الثوري المجيد.

يدعونا عمار بلخوجة إلى الاستفادة من التاريخ في الواقع الحاضر ومحاولة توظيفه بما يخدم تطلعات المفكرين والمثقفين المهتمين بشؤون المجتمع الجزائري، "والجميل في كتاب عمار بلخوجة هو أنه مؤسس على نظرة برغماتية كبيرة نادرا ما نجدها في الكتابات الجزائرية عن الأمير. مليء بالمعلومات والتفاصيل والمقترحات الممكنة التحقيق ،من أجل استعادة ذاكرة الفاعلين في التاريخ[48]، إن عمل المؤرخ بالمعنى الحقيقي هو تشريح الماضي التاريخي من خلال البحث في الأحداث والوقائع التي يمكنها أن تقدم للإنسان ما ينفعه في حاضره من أجل القدرة على الوجود والاستمرار في التاريخ، لأن المجتمع الذي لا تاريخ له لا يمكن أن يستمر في الحاضر ولا أن يتقدم في أشواط الزمن والتاريخ .

خاتمة

إن التفاتة عمار بلخوجة إلى شخصية الأمير عبد القادر وتاريخه الوطني المجيد يعد من صميم الاهتمام بالتاريخ، واستذكارٌ للجوانب المنسية منه، وما يميز مؤلفه الذي جاء بعنوان "الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام" عن غيره من المؤلفات التي كتبت عن الأمير عبد القادر هو طريقته المتميزة في عرض الأحداث وربطه بينها بتحليلات متميزة، كما أن المؤلف ركز إهتمامه على شخصية الأمير الأخلاقية والإنسانية التي اعتبرها مدخلا مهما في فهم تاريخه الثوري ضد الإستعمار الفرنسي، "كان للأمير عبد القادر الإيمان والعلم الضروريين ليعلن نفسه إماما ولم يفعل. وكان لديه القوة والقدرة والنفوذ ليعلن نفسه سلطانا، ولم يفعل. كما أنه لم يكن، من جهة أخرى لا اقطاعيا ولا متعصبا. لقد انكب في صخب الحرب وعنفها على تشييد دولة حديثة قائمة على العلم والقيم

الإنسانية وهو قائد مستنير لمجتمع متضامن مع نفسه غير محب للحرب ومتفتح على العالم. ذلك هو مشروعمجتمعه الطموح"[49]، إن الهدف الذي ابتغاه عمار بلخوجة هو تخليص تاريخ الأمير عبد القادر من التزييف والتزوير ومن الصمت المطبق اتجاه شخصيته الثائرة من خلال ربط الحاضر بالماضي ونقل التاريخ بكل أمانة وموضوعية، وقد كانت مؤسسة الأمير عبد القادر منذ التأسيس لها في عام 1991 تعمل على إحياء التاريخ الثوري للأمير عبد القادر من خلال تعريف الجيل اللاّحق بالجوانب المنسية من حياته والاهتمام بتراثه الفكري والثقافي والإجتماعي والسياسي، ولكن هذه المؤسسة لا يمكن أن تحقق أهدافها وغاياتها ما لم يتحمل السياسيون والمؤرخون والمثقفون المسؤولية الملقاة على عاتقهم اتجاه تاريخهم الوطني.

– هوامش الدراسة:

---

[1]– نذكر في ما يلي سيرة لعمار بلخوجة ومؤلفاته على حسب التسلسل الزمني لها في النشر (المصدر على حسب ما يرويه عمار بلخوجة في سيرته الذاتية).

BELKHODJA Amar né le 16 novembre 1941. Réside à Tiaret depuis l'âge de six mois.

* Ancien journaliste au quotidien *El Moudjahid* (1970-1995).
* Membre fondateur, Fondation Emir Abdelkader.
* Ancien membre de la Fondation du 8 Mai 1945.
* Ancien correspondant du Centre National d'Etudes Historiques.
* Initiateur de la journée nationale de l'artiste en hommage au martyr Ali Maâchi
  assassiné par l'écriture française le 8 juin 1958
* Collabore par l'écriture de textes sur les massacres coloniaux avec le cinéaste photographe Mostefa Abderrahmane, prix Unesco de photographie en 1993.

1-ALI MAACHI – ART ET COMBAT : Epuisé. 1990 .
2-L'AFFAIRE HAMDANI ADDA :. - El Biar - Alger. ENAG - 2013.
3-ALI EL HAMMAMI ET LA MONTEE DU NATIONALISME ALGERIEN : - Ed Dahleb - Alger - 1991.
4-PAGES DE NOVEMBRE : Réédité en 2014 par les éditions Alpha.
5- CHRONIQUES DE TIARET : à compte d'auteur - 1998 .
6- MARIE CLAIRE BOYET - LA MARTYRE DE TAGDEMPT : Ed. ANEP 2003 -
07- KAID AHMED PORTRAIT D'UN PATRIOTE : Ed. Anep 2003
08- BARBARIE COLONIALE EN AFRIQUE : Ed. Anep 2003 –.

09.- **ALI MAACHI – ART ET COMBAT** — Edité par les soins du Ministère de la Culture en 2005.
10-COLONIALISME, LES CRIMES IMPUNIS :– Ed. Alpha Design - Alger - 2006
11- MOMO – LA MAGIE DES MOTS :– Ed. Alpha - 2006
12-L'EMIR ABDELKADER NI SULTAN NI IMAM : Ed. Alpha - 2007 -
13-ALI EL HAMMAMI : du Rif à Karachi - l'épée et la plume - Ed. ANEP – 2007.
14-MOUVEMENT NATIONAL - DES HOMMES ET DES REPERES : Ed. Alpha – 2008.
15-LA PLUME CONTRE SABRE - MOHAMED BENSALEM LAGHOUATI :- Labter 2008
16-ALI MAACHI - L'HYMNE ASSASSINE : - Ed. Alpha - 2009 –
17-MOMO – PAR L'IMAGE ET PAR LE MOT :. 2009. Ed.Alpha -
18-LA PASSION DE L'AUTRE :– Edition Lazhari abtar – Alger – 2008.
19-MOMO LE POETE BENI: Edition El Ibriz – Alger – 2013 –
20-EN EPIANT L HISTOIRE : Ed-Alpha-2011- Alger**.**
21-ARTS ET ARTISTES : Ed. El kalima- Alger. 2011.
22-HALIM MOKDAD – BERROUAGHIA HEROÏQUE ET MARTYRE: Ed. El kalima 2011.
23-TIARET - MEMOIRE - MIROIR : Ed. El kalima - Alger- 2011.
24 -LES ENFUMADES DU DAHRA – LES 1.000 MARTYRS DES OULED RYAH :– Alger - 2011.Réédition en 2014.
25 - NOUVELLES CHUTES –- Ed. ENAG –Alger – 2012
26- CRIMES, MISERES ET FAMINE EN TEMPS COLONIAUX :. Editions Kalima, Alger 2013.
27- GUELMA – UN CRIMINEL NOMME ACHIARY .Soutenu par le ministère de la culture.
28-TIARET – LA REVOLTE URBAINE DU 8 JANVIER 1961 . –Editions Alfa – 2013 -
29-AISSAT IDIR et FERHAT HACHED –par le ministère de la culture en 2015.
30-BAYA HOCINE –. Soutenu par le ministère des Moudjhidine - Alger – 2014.
31- L'ARPENTEUR DE LA MEMOIRE-. Ed. Alpha- Alger 2015.

[2]– عمار بلخوجة، "الأمير عبد القادر، لا سلطان ولا إمام"، ترجمة: حبيب شنيني، تقديم: واسيني الأعرج منشورات ألفا، قصر المعارض الصنوبر البحري، الجزائر، ط1، 2008، ص10.

[3]– المصدر نفسه، ص11.

[4]– في ما يخص حياة الأمير عبد القادر كما يرويها الباحث عمار بلخوجة عن المؤرخ الشهير والمختص في العلوم الإسلامية عبد الحميد بن أشنهو، والذي نوجزه كالتالي ((الأمير عبد القادر بن محي الدين بن المختار الحسني ولد بالقطينة (دائرة معسكر) سنة

1223 الهجرية1808(الميلادية)، كان سنه يبلغ عند احتلال الجزائر من طرف الجيوش الفرنسية 22سنة، حينئذ كان يقود مع والده، في منطقة وهران رجاله لدعم المعركة ضد الغازي، وقد أبدى شجاعة وتفان وإخلاصا، أدت بالشعب إلى مبايعته أميرا يوم 30 رجب 1248 (27 novembre1832 بوادي فروحة قرب مدينة معسكر فنظم السلطة، وأسس الإدارة وجهز الجيش وقام ضد العدو بحرب لا هوادة فيها أحرز خلالها على العديد من الانتصارات وأذاقه مرارة الهزيمة. واصل المعركة بكل شدة وقوة إلى غاية سنة 1264)1847 (بعد أن خاض حربا لمدة 15 سنة تقريبا، سجل خلالها صفحات مجيدة ستبقى إلى الأبد، مثلا تقتدي به أجيالنا القادمة. وبعد أن قاسى من معاناة الأسر، وعانى من سؤ نية العدو الذي نكث عهده نفي إلى دمشق (سوريا) حيث أنجز أعمالا باهرة سجلها التاريخ. ومن هذه الأعمال، حماية الأقليات المسيحية من هجوم دبره الاستعماريون. توفي الأمير في شهر رجب سنة 1300(ماي 1883) تغمده الله برحمته. ونقلت رفاته إلى مقبرة العالية يوم 16 ربيع الأول سنة 1386(5جوليت 1966 .)أنظر: – عمار بلخوجة، "الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام"، ص32، ص33.

[5]- المصدر نفسه، ص71.

[6]- المصدر نفسه، ص73 .

[7]– المصدر نفسه، ص81.

[8]– المصدر نفسه، ص95.

[9]– المصدر نفسه، ص97.

[10]– المصدر نفسه، ص11.

[11]– المصدر نفسه، ص19.

[12]– المصدر نفسه، ص20 .

[13]– المصدر نفسه، ص21 .

[14]– المصدر نفسه، ص22.

[15]– المصدر نفسه، ص25.

[16]– المصدر نفسه، ص25.

[17]– المصدر نفسه، ص 25.

[18]– المصدر نفسه، ص26.

[19]– المصدر نفسه، ص26.

[20]–نذكر هنا على سبيل المثال ما قاله فريديريك انجليز من فرحته عند إلقاء القبض على الأمير عبد القادر الجزائري، لأن ذلك سيسمح في نظره بمواصلة المهمة الحضارية لفرنسا في هذه البلاد، حيث كتب قائلا "إننا فرحون بإلقاء القبض على القائد العربي الأمير عبد القادر..إن غزو الجزائر عملية مهمة لتقدم الحضارة ..وعلى كل حال البرجوازي المعاصر والحضارة والصناعة والنظام والتنوير الذي يأتي به هو عمل جيد لدولة ومجتمع البرابرة"، ينظر: رابح لونيسي، "البديل الحضاري– دراسة مستقبلية لمواجهة الكارثة التي تهددنا"، دار المعرفة، 1998، ص30.

[21] – عمار بلخوجة، "الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام"، مصدر سابق، ص30.

[22]– المصدر نفسه، ص26.

[23]– المصدر نفسه، ص30.

[24]– المصدر نفسه، ص31.

[25] – المصدر نفسه، ص32.

[26]– المصدر نفسه، ص38.

[27]– المصدر نفسه، ص61.

[28]–المصدر نفسه، ص62.

[29]– المصدر نفسه، ص62 .

[30]– المصدر نفسه، ص62.

[31]– المصدر نفسه، ص62 .

[32]– المصدر نفسه، ص64 .

[33]– المصدر نفسه، ص66.

[34] – المصدر نفسه، ص69.

[35]– المصدر نفسه، ص136.

[36] – يبين عمار بلخوجة أن مؤسسة الأمير عبد القادر تعمل على تنظيم لقاءات في المستوى الوطني أو الدولي حول حياة وعمل رجل دافع دفاعا مريرا عن وطنه وعن شعبه. وكانت هذه المبادرات مشجعة ولكنها، مع الأسف تبقى محدودة وغير كافية من حيث أنها لا تغطي إلا فضاء ضيقا ولا تبدي اهتماما إلا بنخبة "باحثين وجامعيين" بالفعل إن اغلبية شبابنا لا تسجل اليوم في ذاكرتها إلا بعض العموميات المبهمة عن الرجل ذي الفضائل وعبقرية نادرة، أنظر: – عمار بلخوجة، "الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام"، مصدر سابق، ص73، ص74.

[37]– المصدر نفسه، ص74.

[38]– المصدر نفسه، ص74.

[39]– المصدر نفسه، ص73.

[40]– المصدر نفسه، ص73 .

[41]– المصدر نفسه، ص94 .

[42]– المصدر نفسه، ص82.

[43]– المصدر نفسه، ص83.

[44]– المصدر نفسه، ص106.

[45]– المصدر نفسه، ص106.

[46]– المصدر نفسه، ص108.

[47]– المصدر نفسه، ص108.

[48]– المصدر نفسه، ص12.

[49]–المصدر نفسه، ص136 .